الهبوط.. إلى برج القوس

(إلى ميلادي مرة أخرى)

صباحاً طلعتُ
متشبثاً بمشيمة فلاّحة
هبطت بها من بغداد
الباصات الخشبية
وقحط المزارع
والجراد
على حدّ عام يحتضر
كما لو كنتُ أنتظر صمت المدافع
وانتصاف القرن
واكتمال الأولاد الخمسة
قبل أن يصبحوا دزينة فقراء
هكذا

– والمطر يغرق الشوارع
ويزيد كانون الأول برداً وشحوباً
طلعت صباحاً
نحيفاً.. كعصفور شوكي
لأسكن برج القوس المكسور دائماً
ولكن.. أمام الصفوف
في طوابير الصباح المعذّب بالنعاس والجوع
والبرد
سأنشد (شوقي):
(.. وللحرية الحمراء بابٌ
بكلّ يد مضرّجة يُدقُّ)
ولا أفقه المسألة
فلم أبصر الأيدي
وهي تُلوى على ذلك الباب..
مكسّرة الأصابع
كنتُ أقول– بصراخٍ بائس وكأنني أتمدد خارج جسدي:
(بلادي)

فتفتح في الذاكرة
كوى الجبّ.. يدخله ألف يوسف
والحب
– بوردة دفلى فقيرة–
وبرد شباط

– ولكي ندفأ
كنا ننفخ عبثاً في راحاتنا
ونضربُ أفخاذاً يكشفها سروالٌ مهترئٌ..
ووحيد –
ثم نسير صفوفاً كخيط نمل يبحث عن حبّة
ندخل قاعات الدرس الطينية
نتشمم رائحة البيض الفاسد
وحبوب زيت كبد الحوت الكريهة
وبقايا الخبز
في فسحة التغذية المجانية

ثم نغني– رافعين رؤوسنا الحليقة إلى سقف
طيني تشاركنا فيه العناكب والأرضة..
نغني لذلك العلم المترنح في الريح:
(عشْ هكذا في علوّ أيها العلمْ)
عش هكذا..
ولتنخفض سقوف بيوتنا المضاءة بالفوانيس
ولتنهدم قرانا
يأخذها الفيضان يوماً في 1954 لنصبح في
عداد (المنكوبين)..
(وأذكر هذه الطرُفة)
عام 1957– كثير منكم أيها الأعزاء لم يكن قد ولُد بعد–
أخبرنا مدير المدرسة
– والأرض لا تسع قدميه فرحاً–
أن الملك سيزور قريتنا
بعد أن يحضر حفلاً لصيد ابن آوى

تغير كل شيء في قرية (الرستمية) وأزقتها الترابية
ودُعيت لأكون ضمن فرقة الإنشاد
معلّم الإنجليزية القصير بجثته الضخمة
الآثوري الذي يتكلم انكليزية صافية تثير
ضحكنا
ألّف نشيداً ولحنّه
(وي آر سكول بويْز
إنْ رُستمية
– إنْ بغداد– إن إراك
أوَرْ كنغ فيصل..)
هذا ما ظل عالقاً على جدران الذاكرة.. من النشيد
لكننا– أطفال القرية–
وبعد أن ألغيت زيارة الملك لأسباب لم نعلمها
حتى الآن

صرنا نقرأ النشيد كل عاشوراء

حين يضاعف السوادَ كآبة لياليا

وسط مواكب العزاء

موقعّين على صدورنا العارية

بين دهشة الكبار ولعناتهم:

(وي آر سخول بويز)

.....كان ذلك كله

قبل أن ينغلق إلى الأبد باب (شوقي)

وتنكسر سارية العلم

كان ذلك

قبل أن تتهدم القرية

ويكبر الصغار.. وتتفرق بخطاهم الطرق..

وتشيب السوالف.. والأرواح.. والأفئدة.

صنعاء/ كانون الأول/ 1998م